باب اللغة العربية وآدابها:

1. التأثير والتّشكيل في أدب سحر خليفة : جدليّة اللحظة والتّاريخ

Influence and Formation in the Literature of Sahar Khalifeh: The Dialectic of the Moment and History

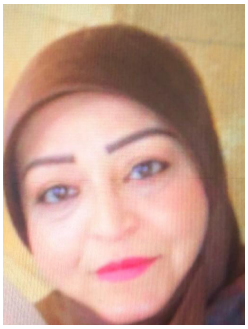

بقلم الدكتورة هبة العوطة

دكتورة في اللغة العربية الجامعة الإسلامية قسمي: الترجمة وعلم النفس

وتنسيق مادة التأهيل اللغوي في مركز اللغات

Dr.Hiba Al outa

Ph.D. in Arabic Language – Islamic University.

Specialized in: Translation and Psychology.

Coordinator of the Language Proficiency Course at the Language Center.

hibaouta78@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2025/2/11 تاريخ القبول: 2025/4/8 تاريخ النشر: 2025/6/25

الملخص:

الأدب بالنّسبة إلى معظم الأدباء الفلسطينيين أداة صراع من أجل الحريّة والتّغيير، أمّا بالنّسبة لسحر خليفة فقد عمدت أن تُطلق في رواياتها الأسئلة الحارة ذات الأبعاد الوجوديّة، فالأدب بالنّسبة لها أسئلة وبحث وفهم وتصوير وجمال، رسم بالمشهد والكلمة، لأنها عاشت مرحلة انتكاسات واحتلال وانتفاضات وثورة ونضال وعنف ودمار، والأدب الفلسطيني بجملته كان تعبيرًا عن ألم جماعي متواصل، وأحلام فرديّة لا تتحقّق، والأفراد يتصارعون مع الذّات ومع الخارج، والخارج مجتمع ما زال في طور التكوين ومستعمر، والمفاهيم ما زالت محكومة بالتقليد ورفض التّجديد وتقييد الفرد، والذّات تجد نفسها محاصرة بدوائر متتابعة لا حصر لها، فهناك الاخفاق الذّاتي، فالاجتماعي فالسّياسي المحلّي فالعالمي .

لذلك بدأت سحر خليفة البحث عن ثقافة جديدة، فكلّما زاد الوعي وانكشف المحيط زاد الانسان تساؤلًا وتعمّقت أزمات الفرد، ولأنّ الفرد هوبذرة المجتمع ولبنته المرصوصة، فمن العبث التّساؤل حول من الأكثر تأثيرًا في الآخر .

وهذا ما حاولت سحر فعله في رواياتها، تصوير أفراد مأزومين يعيشون واقعًا لا يرضيهم يثورون عليه، أو يُسحقون تحت ثقله، أو يقدّمون التّضحيات لتغييره، مسهمة بذلك بدور آنيّ تحضيريّ واستراتيجي، فقضيّة المجتمع المهزوم لا يُمكن حصرها بالاحتلال، ومسألة التّغيير أصعب وأعقد من مسألة الاستقلال الوطني والتّحرير، لذلك نجد دُعاة التّغيير والتّطوير ملاحقين ومستهدفين من قبل حكوماتهم والمستعمر، تلك هي الأسئلة الّتي طرحتها، والإجابات الّتي بحثت عنها من خلال شخوصها، ومن خلال واقع تعرفه وتتصارع معه وتحاول الاسهام في تغييره، يبقى أنّ أسئلة نوعيّة كهذه كفيلة باكتشاف موقعنا الثّقافي في عالم اليوم من جهة، وبإعادة تشكيل ثقافتنا من جهة ثانية، فنكون على قدر المرحلة الّتي نتفيّأ في ظلالها .

كلمات مفتاحية: الأدب الفلسطيني، سحر خليفة، الهوية الثقافية، الصراع والحرية، أزمات الفرد والمجتمع.

SUMMARY:

For most Palestinian writers, literature is a tool of struggle for freedom and change. However, for Sahar Khalifeh, literature serves as a vehicle for raising burning

becomes, and the deeper individual crises go. Since the individual is the seed and the foundational unit of society, it becomes futile to ask which influences the other more.

This is exactly what Sahar Khalifeh sought to portray in her novels: individuals in crisis, living in a reality they reject — rebelling against it, being crushed under its weight, or offering sacrifices to change it. Through this, she played a timely, preparatory, and strategic role. The plight of a defeated society cannot be reduced merely to occupation, and the question of change is far more difficult and complex than national independence and liberation. Therefore, we find advocates of change and progress being pursued and targeted by both their own governments and the colonizer. These are the questions she posed, and the answers she sought through her characters and the reality she knows, confronts, and tries to transform. Ultimately, such profound questions are capable of revealing our cultural position in today's world, and of reshaping our culture — enabling us to rise to the challenges of the era we live under.

existential questions. To her, literature is about questioning, seeking, understanding, representing, and creating beauty — painting with scenes and words. This perspective stems from her experience of living through setbacks, occupation, uprisings, revolution, resistance, violence, and destruction. Palestinian literature as a whole has been an expression of ongoing collective pain and unfulfilled individual dreams. Individuals in her narratives grapple with both inner and external conflicts, while the external world represents a society still in the process of formation, under colonial

pressure. Concepts remain shackled by tradition, resistant to renewal, and restrictive of individuality. The self, in turn, finds itself trapped in an endless succession of encircling struggles — from personal failure to social, to local political, to global crises.

Thus, Sahar Khalifeh began searching for a new cultural vision. The more awareness grows and the surrounding reality is unveiled, the more intense human questioning

Keywords: Palestinian literature, Sahar Khalifeh, cultural identity, struggle and freedom, individual and societal crises.

المقدّمة

مرّ المجتمع الفلسطيني وما زال بالعديد من التّجارب المؤلمة على كافة الأصعدة: سياسيًّا، واقتصاديًّا، واجتماعيًّا، وثقافيًّا، وعانى النّكبة والنّكسة وحروبًا مستمرّة لا نهاية لها، وعاصر هزائم تتلوها هزائم .

قامت معاول الاحتلال بالتّدمير والتّهجير والتّنكيل، واستمرّت سياسة القمع، والاستيطان عقودًا طوال، ما انعكس سلبًا على المجتمع الفلسطينيّ الّذي عانى الفقر والشّتات، والفلسطينيّ يحاول الثّبات على أرض صلبة، ولديه الارادة، والقدرة على التّغيير إن أراد، لكنّ السّلبيّات المحيطة به تقف عائقًا بينه وبين تحقيق نجاحه المنشود على المستوى الفرديّ والجمعيّ .

وقد ساهمت الأزمات السّياسيّة في البلاد العربيّة وتبعيّة الزّعامات العربيّة للأنظمة الدّولية المسيطرة في تكريس الشّعور بالظّلم، والتّخاذل وضياع الشّعور بالانتماء، ما يُعمّق الفجوة بين الطّموح المنشود والواقع، وبالتّالي فقد أكسبت هذه المعطيات وهذه التّحديّات الأدباء في فلسطين العديد من الخبرات، فتنوّعت وتعدّدت الكتابات والوجهات الأدبيّة الّتي انطلقت تُعالج تحديّات الواقع بقدرات متفاوتة .

وقد أثبت الأدب الفلسطينيّ وجوده في مجالات عديدة كالشّعر، والرّواية، والقصّة، اذ استطاع أن يُعبّر عن الهمّ الوطني، كما عُرف بالتزامه بقضايا الواقع الفلسطينيّ الّذي يُسجّل الأحداث ويوثّقها بطريقته الخاصّة بِما لها وما عليها من تبعات.

على مدى عقود كافح الكتّاب الفلسطينيّون من أجل قضيّتهم ليقدّموا للقارئ الفلسطينيّ والعربيّ رؤيتهم عن مجتمعهم الّذي هوجزء من المجتمع العربيّ بهمومه وقضاياه المشتركة . كلّ ذلك يجرّنا إلى سؤال مفاده: هل استطاعت كلّ من سحر خليفة أن تخرج من ركام المعاناة والقضايا المتشابكة برؤية جديدة لاستيعاب معطيات الواقع والتّعامل معه من خلال نقده، ثمّ محاولة وضع أسس جديدة للتّغيير ؟

انطلاقًا من هذه الإشكالية، يفترض البحث أن سحر خليفة اعتمدت في «أصل وفصل» على الرمزية والموت العبثي لتصوير حالة الفلسطيني اللاجئ العاجز عن المواجهة، في حين قدّمت نموذجًا أكثر مباشرة لشخصية منغمسة في واقعها النضالي، مما يعكس تطور رؤيته

للقضية الفلسطينية. كما يُفترض أن هذا التّطوّر كان جزءًا من تشكيل ثقافي ساهم في إعادة صياغة صورة الفلسطيني في الأدب العربي، مما جعله أكثر حضورًا في الوعي الجمعي.

يتضمن هذا البحث ثلاثة محاور هي:

التّعريف بالرّوائيّة «سحر خليفة» وهو عنوان المحور الأوّل، فيما تضمّن المحور الثّاني سيمائيّة الفضاء الطباعي لغلاف رواية أصل وفصل، وسلّط المحور الثّالث الضّوء على التّأثير الآنيّ والتّشكيل الثّقافيّ في الرواية الآنفة الذكر. فضلا عن الخاتمة الّتي تضمّنت أهمّ النتائج الّتي توصّل إليها البحث. وقائمتيْ المصادر والمراجع .

أوّلا .التعريف بالرّوائيّة سحر خليفة

واحدة من أهمّ الرّوائيين الفلسطينيين، ولدت في نابلس عام 1941، تزوّجت في سنّ مبكرة زواجًا تقليديًّا، وبعد مرور ثلاثة عشر عامًا من الاحباط وخيبة الأمل، قرّرت أن تتحرّر من هذا الزّواج وتكرّس حياتها للكتابة. وقد عادت لتواصل دراستها الجامعيّة، وحصلت على شهادة الدكتوراه من جامعة «أيوا» في دراسات المرأة والأدب الأميركي، وعملت في مجال حقوق المرأة لأكثر من ثلاثين عام .

كتبت الكثير من الرّوايات الّتي أحدثت صدى كبيرًا بسبب دفاعها عن حريّة المرأة . غير أنّها لم تحظَ بالاعتراف الأدبي إلاّ بعد صدور روايتها «الصّبّار» .

تُرجمت معظم رواياتها إلى العبريّة والفرنسيّة والألمانية والهولندية ... ونالت العديد من الجوائز العربيّة والعالميّة وأهمّها :

جائزة ألبيرتو مورافيا للأدب المترجم للايطاليّة، جائزة سيرفانتس للأدب المترجم للأسبانيّة، جائزة نجيب محفوظ عن روايتها «صورة وأيقونة وعهد قديم» وجائزة سيمون دي بوفوار الّتي رفضتها لأسباب وطنيّة عام 2009 .

صدر لها الكثير من الرّوايات وجميعها عن دار الآداب ـ بيروت ـ نذكر منها:

1ـ لم نعد جواري لكم 1974 .

2ـ الصّبّار 1976 .

3ـ عبّاد الشّمس 1980 .

4ـ مذكّرات امرأة غير واقعيّة 1986 .

5ـ باب السّاحة 1990 .

6ـ الميراث 2002 .

7ـ صورة وايقونة وعهد قديم 2002 .

8ـ ربيع حار 2004 .

9ـ أصل وفصل 2009 .

10ـ حبّي الأوّل 2010 .

11ـ أرض وسماء 2013 .

في عملها الرّوائيّ تُعبّر سحر خليفة عن ايمانها العميق بأنّ وعي المرأة النسوي هو جزء لا يتجزّأ من وعيها السّياسي، وهي ترينا في رواياتها، وبأسلوب مقنع، أن نضال المرأة الفلسطينيّة والمحن الّتي تمرّ بها جزء من النّضال السّياسي الفلسطينيّ العام من أجل التّحرير .

ثانيا .سيمائيّة الفضاء الطّباعي للغلاف

لم تعد الرّاوية اليوم تلك الغرافية الّتي تُلامس البصر فتوحي إليه بشتّى المقاصد والمعاني، بل تجاوز الأمر فيه إلى عدّة مظاهر كالصّورة، والعنوان، واسم المؤلّفة... وما إلى غيرها من الإشارات الدّالّة، وتلك المظاهر تحكمها قصديّة المؤلّف، وقد عمدت في دراستي أن أخضعها للتّحليل والتّدقيق حتّى تتسنّى لي دلالتها، والبداية تكون مع صورة الغلاف، والصّورة كما جرت العادة يُمكن أن نفهم من خلالها الدّلالة الحقيقيّة والمجازيّة في آنٍ معًا، فهي الشّكل البصري المتّيقن، كما انّها تُعدّ الشّكل الذّهني المتخيّل الّذي تثيره العبارات اللّغوية، فصار ضروريًّا أن نُميّز بين الأنواع المختلفة للصّورة، في علاقاتها بالواقع الخارجي، يليه العنوان ـ عنوان الرّواية ـ إذ لا نكاد نجد رواية دون عنوان، فهو الأثر الّذي يتعرّف به المتلقّي إلى مضمونه، والظّاهر الّذي يُستدلّ به على باطنه .

أمّا اللّون فهوعلامة بصريّة، لها مكانتها في تكثيف دلالة النّصّ المعروض بما تُثيره في نفس المتلقّي، وزيادة درجة اقباله على المبصرات، لذلك يجب التّركيز على أبعاد اللّون، ودرجات استخدامه، وتقنيّة درجاته، وتناسب تجاورات الألوان، ممّا يُضفي عليها إثارة وجدانيّة، هذا إلى جانب الأبعاد الرّمزية والدّلالية لهذه الألوان .

وعليه فسأحاول مقاربة صورة الغلاف المؤنّثة بثلاث علامات هي: اللّوحة التّشكيليّة، والعنوان، والاهداء وهي ترتبط بالمتن الحكائي بعلاقات تُحقّق نوعًا من التّمهيد لايحاء رمزي .

أ ـ سيمائية غلاف رواية «أصل وفصل»

بدأ كثير من الرّوائيين في العصر الحديث، ومع تقدّم الشّكل الطّباعي للغلاف، يتبارون في جماليات الصّورة الّتي يجب أن تُرفق بالرّواية . وبناء على ما سبق كان لا بُدّ للصّورة من أن تُنتج دلالة ترتكز إلى خلفية ثقافة المؤلّفة . وبالنّظر

إلى الصّورة المصاحبة للغلاف في رواية «أصل وفصل» نجدها مرسومة داخل شكل هندسي هو مستطيل، والمستطيل له بعدان غير متساويين (الطول والعرض)، فربّما أرادت الكاتبة أن ترمز لهذيْن البعديْن على أنّهما يمثّلان نوعيْن من الشّخصيّات داخل الرّواية، وبالحديث عن الشّخصيات نجد أن سحر خليفة تلحّ على حضور القدس في غلاف روايتها، فهي تورد صورة لنساء مقدسيّات تظاهرن عام 1937 في مقر الحاكم العسكري في القدس، وهذه الصّورة وردت في الجزء الثّاني من الرّواية، وهي مأخوذة من كتاب للدكتور وليد الخالدي[1]، وتُظهر الصّورة نساء يقفْن أمام مبنى الحاكم العسكري يرتدين المعاطف والقصيرة والبرانيط (البونيهات)، والمناديل والغطوات، وهذه الصّورة قديمة، تعود بالقارئ إلى أزمنة سابقة تصله بماضي القدس زمن الانتداب الانكليزي على فلسطين .

نخلص ممّا سبق أنّ الكاتبة أرادت من وراء هذه الصّورة أن تصوّر الحال السيّاسيّة والفكريّة لتلتقي مباشرة مع فكرة الرّواية وقضيّتها، وهذا ما يعني اختزال جزء كبير من الفضاء الرّوائي داخل هذه الصّورة، ويعني أيضًا الثّقافة الّتي تتفيّأ سحر خليفة تحت ظلالها، ويبقى تحليلي هذه الصّورة تحليلا غير نهائي، ولا يُمكن أن يكون كذلك في الأحوال جميعها . إنّه نتاج وجهة نظر معيّنة، أو هو فرضيّة تحتمل الصّواب أوالخطأ .

ب ـ سيمائية عنوان رواية «أصل وفصل»

لقد اهتم علماء السّيمياء اهتمامًا واسعًا بالعنوان في النّصوص الأدبيّة، باعتباره علامة اجرائيّة ناجحة في مقاربَة النّص بُغية استقرائه وتأويله، وإذا نظرنا في المعنى المعجمي للفظة «عنوان» واشتقاقاته نجد أنّ اللّفظ مشتقّ من المعنى والتفسير والتأويل، أيّ انّ العنوان يُفسّر شيئًا ما، وإنّه يحمل معنى الشّيء، وإن عنونة شيء بعينه تُعدّ سمة هذا الشّيء ومعناه ومقصده، وهذا أشبه ما يسم وجوه السّاجدين مكان أثر السّجود، قال تعالى: «**سيماهم في وجوههم من أثر السّجود**»[2]، ممّا يعني تطابقًا بين المعنى اللّغوي للعنوان، والمعنى الاصطلاحي والدّلالي، و«لأنّه مفتاح التّجربة وكنزها المعبّأ بكل صنوف الوجدان»[3]، ولذلك

1ـ سحر خليفة، أصل وفصل، بيروت، دار الآداب، 2009 ، ص 157 .

2ـ القرآن الكريم، سورة الفتح، آية 29 ، ص 515 .

3ـ رشيد يحياوي، الشّعر العربي الحديث، افريقيا الشّرق ، الدار الدار البيضاء، بيروت، 1998، ص 110 .

فهو يرمي إلى أمر غائب في النّصّ على القارئ أن يبحث عنه «لاكتشاف البيئة المولّدة للدلالة والجديرة بأوليّة التّحليل»[1]، نخلص ممّا سبق إلى أنّ العنوان يُعدّ مفتاحًا إجرائيًّا في التّعامل مع النّصّ الأدبي في بُعديْه الدّلالي والرّمزي، وهو نواة مركز النّصّ الأدبي والموجّه الرّئيس للنّصّ، هو دال إشاريّ يوحي عن قصديّة المُبدع أوالمُنتج. وبالنّظر في عنوان الرّواية «أصل وفصل»، نجد العنوان يتكوّن من نكرتيْن عُطفت الثّانية على الأولى، فزادتها غموضًا، ولا يغيب عن العنوان أيضًا الحذف النّحوي في المبتدأ، كأن نقول هذا أصلٌ وفصل، انّ أوّل ما يَبرز في ذهن المتلقّي سؤال ملحّ، وهو هل الأصل والفصل في الرّواية يفتخر بهما أم يسخر منهما؟ أم ان العِبرة بالعمل كما يظهر في صورة نساء القدس، وهويختصّ بهنّ فحسب؟ ام انّ العنوان النّكرة يحمل معنًى مغايرًا يُثير السّخرية من الأصل والفصل؟ ومن كلّ من يتغنّى بهما ؟ جملة أسئلة تستدعي الولوج إلى عمق الرّواية، فبعد قراءة متأنّية للرّواية نعي أن الأصل والفصل يعود للمرأة الفلسطينيّة الّتي تصبر على ظلميْن: ظلم الرّجال المضطهدين لحقوقها، وظلم المحتلّ المعروف، وهي بالتّالي تقع ضحيّة فاقدة لكلّ حقوقها مقابل الرّجل السّيّد المهيمن، والمشكلة تكمن في كيفية تحرّر الرّجل من هيمنته، حتّى يكتمل قرار الوطن، الهدف الاستراتيجي العاجل الّذي تعبق به أجواء الرّواية.

إنّ اللاّفت للانتباه أيضًا أنّ لون المكوّن الأوّل في الرّواية يختلف عن اللّون الثّاني، فيبدو الأوّل «أصل» باللّون الأسود الّذي يبعث على التّشاؤم والحزن وهو عنوان الجزء الأوّل من الرّواية نفسها، تروي فيه نضال بنت وداد وحفيدة الحاجة زكية، عن أصل العائلة الّتي تنتمي إليها العائلة النابلسيّة، وهي عائلة (قحطان) العربيّة المنبت، ولتبدأ نضال ومن خلفها سحر خليفة بالسّخرية من أجداد العائلة ومن تاريخها الحافل بالمهازل، فكبير العائلة نصّاب محتال، يحتال على جدّتها ويسرق مصاغها الذّهبي[2]، وجد الأجداد قحطان يتجبّر بالبدو والفلاّحين، ويجلب القحط في المكان الذي يحلّ فيه .

أمّا «فصل» فتبدو باللّون الأحمر[3]، ويُنبئ بدمويّة المشهد وحرارته . إنّ الأصل والفصل في الرّواية لا يبعثان على الرّاحة،

1- أحمد مداس، لسانيات النص، نحو منهج لتحليل الخطاب الشعري، جدارا للكتاب العالمي، عمان، الأردن، 2007 ، ص 11 .

2- سحر خليفة ، أصل وفصل ، بيروت، دار الآداب ، ص 18 .

3- م. ن.، ص 23 .

وهما أصل الهزيمة وسببها، وهذه الهزيمة تتبدّى في عدّة مواقف داخل الرّواية، لذلك يمكنني القول إنّ مضمون هذا العنوان «أصل وفصل» طوى في ثناياه الكثير من المعاني والرّؤى، وساهم في تشكيل ثقافة القارئ المتّكئة إلى ثقافة سحر خليفة الّتي ترفض بعناد شرعيّة القوّة الظّالمة سواء أكانت من الرّجل المهيمن أم العدو المغتصب للأرض .

ج ـ سيمائية الإهداء

ورد في الإهداء:

لا تقولوا لي لم أقل شيئًا جديدًا،

أسلوب ترتيب العناصر هوالجديد .

باسكال .

لم يغبْ عن وعي سحر خليفة موقف الكثيرين الرّافض لكثير من الآراء والمواقف الّتي طرحتها في رواياتها السّابقة، ولكنّها من منطلق إيمانها بأنّ الرّواية عمل أدبي فكري نقدي بامتياز، فقد تجاهلت كلّ الاعتراضات والهجومات، واستمرّت في نقدها الحادّ الغاضب لكلّ الانحرافات الّتي وجدتها في المجتمع الفلسطيني أو السّلطة التّنفيذيّة مؤكّدة على واجب تحرير المجتمع، لهذا عندما سئمت من واقع الحاضر، ويئست من إصلاح الخراب القائم، وملّت حديث بطولات الماضي الّذي غلّفوه بالبريق الكاذب أمام ما تشهده من حقائق صادمة للواقع الحزين لشعبها الفلسطيني، ووطنها فلسطين المتآكل يوميًّا تحت آلات المحتلّ الاسرائيلي، انعطفت في تحوّل أسلوبها ولغتها وفكرها، وتحدّت النّقّاد بكلمات باسكال: «لا تقولوا لي لم أقل شيئًا جديدًا، أسلوب ترتيب العناصر هو الجديد»، لتومئ بذلك إلى أنّ العناصر الّتي تتكوّن منها الرّواية، والتّرتيب الّذي تريد هو أن تعود للأسباب والمسبّبات والأصل والفصل فيما حدث حتّى تكون على دراية كاملة بواقعها وما آلت إليه حالة شعبها ووطنها .

لاحظنا من خلال العرض السّابق، أنّ سحر خليفة أضافت من خلال الإهداء أبعادًا فكريّة عميقة كانت ساكنة وقارّة داخل وعيها، ممّا ساعد في تجسيد رؤيتها، وبالتّالي ثقافتها الّتي تتفيّأ في ظلالها.

ثالثا. «أصل وفصل» بين التأثير الآني والتّشكيل الثّقافي

صدرت رواية «أصل وفصل» للكاتبة سحر خليفة في طبعتها الأولى عام 2009 عن دار الآداب، أي بعد صمود غزّة (الانتصار) الذي أعقب تجارب في الصّمود خاضتها المقاومة الاسلاميّة في

لبنان، أضف إلى ذلك الأساس الّذي مهّدته المقاومة اللبنانيّة الوطنيّة الّتي افتتحت عهد الاستشهاد الّذي زلزل الأرض تحت أقدام العدوّ الصّهيوني مقدّمًا الرّاية الخفّاقة للمقاومة الاسلاميّة. وسواء أأطلق النخبوي العربي على هذه التّجربة مصطلح (انتصارات)، أم رأى فيها معارك جزئيّة في الصّمود لا تمثّل انعطافًا أساسيًّا في تاريخ المواجهة مع العدوّ الاسرائيلي، «فإنّ المسافة بينها وبين نكبة العام 1948 من ناحية، ونكسة العام 1967 من ناحية ثانية مسافة غير قابلة للقياس . خلقت مناخًا مفعمًا بمعنويّات لا تُدرك، ومثّلت استعادة للرّوح وللرّوع معًا»[1] .

والانتقال بالتّفكير من داخل دائرة الهزيمة (1948 ـ 1967) إلى التّفكير داخل دائرة مختلفة (دائرة الانتصار) هومعلم أساسيّ من معالم تغيّر فضاء الكتابة العربيّة الجديدة. ولا يمكن لهذا المعلم إلاّ أن يعطي ثقافة الأديب، رؤيته، سعة وآليّة في الاشتغال لم تكونا لها من قبل.

والسّؤال الّذي يُثار بناءً على ما تقدّم ما مدى قدرات خصوصيّة سحر خليفة الثّقافيّة الرّؤيويّة في الكشف عن أعماق جديدة تعتمل داخل حياة الفلسطينيين بين ثقافة التّهويد بكلّ ويلاتها من جهة، وثقافة الرّفض والمقاومة بكل آلامها من جهة أخرى ؟

تتطلّب الإجابة عن هذا السّؤال معالجة أمرْين: الأوّل هو المرأة بين التّأثير الآني والتشكيل الثقافي، والثّاني المجتمع بين التّأثير الآني والتّشكيل الثّقافي .

1ـ المرأة بين التّأثير الآني والتّشكيل الثقافي

إنّ نمط العلاقات السّائد بين الأفراد والسّلوكيّات المتحكّمة في حياة الفرد لا تزال قائمة حتّى الآن، ما كان سائدًا في السّابق لا يزال سائدًا حتّى بعد هذا السّيل العارم من التّصدّي والمواجهة، وكأنّ سحر خليفة تنادي: ما هي الطريقة النّاجعة للثّورة الحقيقيّة؟ هل هي الثّورة على النّظام اليهودي المتسلّط والمغتصب للأرض والنّاس؟ هل هي الثّورة على ما يتحكّم ويحكُم سلوكيّات الأفراد والجماعة؟ وبالتّالي ما هو نصيب المرأة في الرّواية؟ ما هي المكانة الّتي تحتلّها فيه أيّ منصب تحتلّ داخل الشّبكة المعقّدة والمركّبة للمجتمع وعلاقاته المتعدّدة والمختلفة ؟

تقف الكاتبة بداية على مأساة العربي في تربيته البيتيّة حيث يتحكّم الرّجل، وتفتقد المرأة أيّ من حقوقها الأساسيّة . فكبير العائلة المهيب المحترم الّذي يلبس الجبّة

1ـ علي مهدي زيتون ، أدبية الرّواية ، دار الآداب ، بيروت ، 2016 ، ص 40 .

الواسعة والعمامة الضّخمة يوزّع نصائحه وإرشاداته للجميع «الصّوم يشفي من القرحة والغازات. وكذا الزّواج المتعدّد يشفي من الفسق والغواية وحبّ النّسوان. كما أنّ اللّحية الممتدّة تحدّ من الفتنة والإغراء»[1]، وكبير العائلة هذا كان يمتلك في ذمّته طابور نساء وفقّس منهنّ مليون ولد»[2]، وهو نفسه تنكّر للأمانة الّتي ائتمنته عليها زكيّة بعد موت زوجها، ورفض إعادة المال إليها «حين عادت لتذكّره بالأمانة . قال بغضب: أيّ أمانة؟»[3]، فعاشت فقيرة تستجدي الآخرين لتعيل أسرتها.

مثّلت وداد في الرّواية امتدادًا لتقليد خاص فهي استمرار للحريم هم يقولون وهي تسمع، هم يطلبون وهي تلبّي، هم يأمرون وهي تنفّذ، يقول أخوها وحيد «يرضى عليك شربة ميّة . فتقوم لتحضر كوب الماء، ويقول أمين: أختي حبيبتي بدي آكل . فتقوم لتجهّز له الأكل . تقول الأم: ناوليني المقصّ والقطي حواشي هذا الفستان . فتفعل بالضّبط ما قيل لها»[4]، فلم تفعل مرّة ما يحلولها، أوتطلب شيئًا يلزمها «كانت الأمّ تزوّدها بكلّ ما يلزم وتقول عنها كلّ ما يقال ولهذا اعتادت عدم السّؤال»[5]، حتّى في المدرسة كانت لا تسأل ولا تضحك فقيل عنها «طبطوبة أيّ لا تفهم»[6]، وحين أكملت الصّف الرّابع «أخرجتها الأم من المدرسة»[7]، وهي بالتّالي لم تكن جميلة ولا جذّابة «كانت شاحبة رقيقة بعود ضامر وضفيرتين نحيلتين وصدر ممسوح ... وظلت الأمّ تعاملها بصيغة النّفي حتّى بلغت»[8]، لذلك حين جاء الخال وطلب الفتاة لابنه طار عقل الأمّ ووافقت على الرّغم من دمامة الشّاب واستهتاره وسوء خلقه، إلاّ أنّه كان غنيًّا جدًا، فلم تستشر ابنتها «لم يستشرها أحد . كل ما قيل لها أثناء العشاء أنّ خالها الغنيّ قد طلبها لابنه رشاد ... ابتسمت البنت وطأطأت رأسها وهي تأكل ولم تعلّق ... وكأنّ المسألة منتهية»[9].

ومع مرور الوقت صار «الزواج بمثابة سجن وزوجها بالذّات هوالسّجّان»[10]، ثمّ ما لبث أن طلّقها.

يتضح ممّا سبق انّ العامل الثّقافي والعادات والتّقاليد تنحدر من قمّة واحدة،

1ـ سحر خليفة ، أصل وفصل ، بيروت ، دار الآداب ، بيروت ، 2009 ، ص 17 .
2ـ م. ن.، ص . ن .
3ـ م. ن.، ص 18 .
4ـ م. ن.، ص 46 .
5ـ م. ن.، ص . ن .
6ـ م. ن.، ص 46 .
7ـ م. ن.، ص . ن .
8ـ م. ن.، ص 47 .
9 ـ سحر خليفة ، أصل وفصل ، بيروت ، دار الآداب ، بيروت ، 2009 ص 45 .
10ـ م. ن.، ص 107 .

وغالبيّتها تعطي النّساء الدّور الهامشي في المجتمع، فنمط حياتهنّ رتيب يقتصر على القيام بأعمال المنزل، والاهتمام بالزّوج، وهنّ أميّات نسبيًّا، لأنّ الأوساط الّتي ينحدرْن منها كانت تنظر إلى المرأة من هذا المنظور الموروث: الوضع الصّحيح للمرأة، والوضع الاجتماعي هوالبيت والزّوج، والانجاب، كلّها تضع المرأة في المكانة ذاتها الّتي كانت تحتلّها منذ زمان فائت، من دون أن يكسبها ذلك حريّة اتّخاذ القرار .

لقد وضعتنا حياة وداد الرّتيبة وسط مناخ مشكلي مشوب بالتّشاؤم بقدر ما هومعبّأ بالانتظار، وجعلنا نتطلّع إلى معرفة كيفيّة تشكّل الحدث في الرّواية، لأنّ هذا التّشكيل هو النّظام السّيمولوجي الّذي يُحدّد الوظيفة الّتي توخّتها سحر خليفة لروايتها، فكيف سيتطوّر المنحى الاحباطي مع حياة رتيبة كهذه ألحق بها كلّ أنواع الظّلم من الأم والأخ والزّوج ؟ هل سيتّخذ لبوسًا أخرى؟ هل سينحومنحىً ايجابيًّا ؟

تأتي التّجربة لتوضح الغائم في تصوّرنا، فسرعان ما بدأت شخصيّة وداد تتغيّر «الآن وقد باتت مهجورة ... ما عادت تحسّ بكرامتها. أيّة كرامة لامرأة مطلّقة مهجورة؟ أيّة كرامة لامرأة بدون علم، بدون شهادة؟ أيّة كرامة لامرأة بدون عمل، بدون دخل، بدون وظيفة؟ بدون القدرة على اتّخاذ قرار؟»[1]؛ بالتّزامن مع الظّروف الجديدة «المظاهرة»[2]، فخرجت من حياتها الرّوتينيّة، ورفضت صفقة زواجها من رشاد ابن خالها، فتركت البيت في حيفا، وهربت إلى القدس لتكون برفقة ليزا الانكليزيّة النّاشطة، الّتي أخذتها معها إلى المظاهرة النسائيّة للمشاركة بعمل وطني، وهدف عام فتمنّت أن تموت في سبيل هدف نبيل له معنىً «ما أحلى الموت بكرامة . ما أحلى العذاب في سبيل الوطن. ما أحلى الموت في الشّهادة . أمّا العذاب والموت في سبيل زواج كاذب وزوج مقيت فذاك استنزاف لا معنى له . يجعل من المرأة مومياء تحترف الحزن . ما أبعد هذا الحزن عن ذاك الحزن»[3]، فتحوّلت إلى إنسانة واعية فعّالة، وتابعت وداد في صقل شخصيّتها والتحرّر من قيود الأسرة والعادات والتقاليد بعد عودتها إلى بيت العائلة وانفصالها عن زوجها، والعودة إلى نابلس، فأخذت تفكّر في مستقبلها، وفي كيفيّة توفير مصدر المعيشة لها وللمولود الجديد، رغم عتب الأم ولومها «بدأت من الصّفر عادت

1- م. ن.، ص 353 .
2- م. ن.، ص 116 .
3- سحر خليفة ، أصل وفصل ، بيروت ، دار الآداب ، بيروت ، 2009 ، ص 117 .

تدرس، تعمل وتدرس . قال الطّبيب إنّ العمل سيعلّمها، وكذلك دروس الانكليزيّة والعربيّة وكيمياء وأحياء، وتضميد الجروح وحقن الإبر»[1]، ولم يقتصر عملها على ذلك فقط بل بدأت التّحضير لمشروع السّكن السّرّي الّذي صار لاحقًا مشروعها، مشروع وداد «الّذي كان عبارة عن مستشفى للتّوليد، وتحت التّوليد تتمّ معالجة المصابين والمطلوبين»[2]، كذلك كانت تستقبل في دار قديمة استأجروها، «القرويّات المحمّلات باللّبن والتّين والعنب، وأخبار الشّباب، وأحيانًا يكون تحت العنب والتّين رسائل مشفّرة ومنشورات، وأصابع ديناميت»[3] .

وممّا لا شكّ فيه أنّ الّذي سيمهّد السّبيل إلى التغيير هو الوعي والفكر والتّجربة، إضافة إلى الشّجاعة والإرادة الحرّة، والاستعداد للتّضحية، وهذا ما ركّزت عليه سحر في هذا المقبوس، فالوعي بطبيعة الاحتلال، وبطبيعة القوى الّتي تواجهه قادر على أن يجمع القوى الّتي تناضل ضدّ الاحتلال، وأن يستفيد من أقصى طاقاتها وبالتّالي يضعها في الموقع الصّحيح، وأن تقوم النّساء بتهريب الدّيناميت، إنّما يُمثّل إلحاحًا من الرّواية على وجوب انخراط المرأة في المقاومة، ولكن بعد تحريرها من كلّ ظلم يقبع لها عند كلّ منعطف، فالمطلوب حشد الطّاقات كافّة، لأنّ الرّواية كما رأينا وعت أبعاد المعركة مع العدوّ، وبوجوب الاعداد الثّقافي المستمرّ لها، بقدر ما وعت وجوب المبادرة، لذلك جاء لاحقًا على لسان ابنتها نضال «كانت تعرف ممّا سمعته من النّقاشات أنّ الجيل القديم سيتغيّر إذا غيّرناه، وأنّ التّقليد سيتغيّر اذا كسرناه، وأنّ الثّورة تعني التّغيير، وأنّ التّغيير يبدأ بالنّفس، فواظبت على تغيير تلك النّفس، نفسها هي... كانت مشغولة بما تحلم وبما تعمل وتكسير القيود»[4].

يؤكّد هذا أنّ الثّورة كانت موجّهة من قبل قصديّتها، فالمقصد كان أكثر تحكّمًا في الشّباب من الجوهر الحقيقي للثّورة، لأنّ التّحرّر حسب رأي سحر خليفة ينبغي أن يبدأ من الدّاخل من أنماط العلاقات بين أفراد الجماعة، ينبغي أن تسود الديموقراطيّة بين الرّجل والمرأة، بين الطّفل والشّيخ، بين الرّجل والرّجل، وبين المرأة والمرأة ... فالبناء السّليم لا يقوم إلاّ على هذا النّمط من العلاقات وبدونه فمآله الزّوال والاندحار، وينبغي أن ننهض بالانسان/ الانساني إلى جانب السّياسي، فالأبقى هو الانسان، فحين نحرّر الانسان

1- م. ن.، ص 362 .
2- م. ن.، ص 361 .
3- م. ن.، ص 362 .
4- م. ن.، ص 363 .

يكون الطّريق إلى التّحرير قد بدأ .

هذه محطّة مهمّة تقف عندها سحر خليفة لتنقل إلينا كيف تتغيّر الأدوار الاجتماعية للمرأة، وكيف ستنال بالتّدريج حريّتها، وتملك زمام أمرها وقراراتها، من هنا كانت الآفاق واسعة نحو التّغيير وتحقيق الكيان، وكأنّي بسحر خليفة تصرخ من أعماقها «حرّروا المرأة ليتحرّر الوطن، فهذا الكائن الضّعيف الّذي ترونه ضئيلًا قادرٌ على العطاء والنّضال وحمل السّلاح، واتّخاذ القرارات وبالتّالي تحرير الوطن» .

لقد حمّلت سحر خليفة روايتها همومها وهواجسها فيما يتعلّق بالوطن والمرأة، ورسمت شخصيّة وداد أفقًا ثقافيًّا غنيًّا بدلالاته، عنيدًا في قناعاته، يحدّد للمرأة العربيّة عامّة، والفسطينيّة خاصّة المسار الّذي يجب أن تسلكه في معركتها مع الصّهيوني المحتل، وممّا يجدر ذكره في هذا المقام أن ثمّة آفات اجتماعيّة لا علاقة للاحتلال الصّهيوني في خلقها أوانتشارها، وإنّما تعود كما رأينا إلى سنين عديدة من التخلّف، وسلسلة طويلة من العادات والتّقاليد السّلبيّة الّتي رسّخها المجتمع الذّكوري على مدى حقبة طويلة من الزّمن، فوجبَ على سحر نقدها بهدف خلق البيئة الصّالحة الّتي تُتيح لكلّ أفراد المجتمع أن يناضلوا ضد الاحتلال، فالثّورة كلٌّ لا يتجزّأ: ثورة ضدّ المحتل، وثورة ضد السّلبي من العادات والموروث والتّقاليد، من هنا يمكنني القول إنّ سحر خليفة عملت على تغيير أحد أهم المفاهيم الخاطئة المتوارثة عن المرأة وهي ضعفها، وعدم قدرتها على الانتاج، والحياة بعد اختفاء الرّجل من حياتها، فقد أدركت المرأة طاقاتها، وقدراتها، وعرفت ذاتها وموقعها بعد أن امتدّت إليها روح التّغيير، كلّ ذلك من أجل إعلاء مكانة المرأة وإبراز دورها الفعّال في بناء المجتمع وتقدّمه وفي عمليّة النّضال من أجل التّحرير .

2 ـ المجتمع بين التّأثير الآني والتّشكيل الثّقافي

ترى سحر خليفة أنّ المأساة الّتي أحاقت بالشّعب الفلسطيني، وأضاعت وطنه تعود إلى هذا الفرق الشّاسع ما بين المجتمعين الفلسطيني واليهودي في مختلف نواحي الحياة: المعيشيّة، الاجتماعيّة، الوطنيّة، الفكريّة، الثّقافية ...

وفي موقف كليْهما من قضايا الديمقراطيّة والحريّة والمسؤوليّة الذّاتيّة والجماعيّة، والتّعاطي الواعي مع الماضي والحاضر والمستقبل .

والسّؤال الذي يطرح نفسه هنا لِمَ أتت سحر خليفة على ذكر المجتمع اليهودي؟ ما لها ولهذا المجتمع وسلوكيّاته؟ أيّة ثقافة تودّ سحر تثبيتها داخل خلد القارئ؟ خاصّة كونها روائيّة فلسطينيّة تعاني ألم الغربة والشّتات بسبب هذا الكيان .

ولنصل إلى مزيد من الوضوح نقول: إنّ نظرة عجلى على طبيعة المجتمع الاسرائيلي يُلاحظ من خلالها تلك الملاءمة والتّوافق القوي بين أهداف التّربية التّلموديّة من جهة، وحاجات المجتمع الاسرائيلي من جهة أخرى، هي الوسيلة الأهمّ الّتي استُخدمت لتحقيق أهداف الصّهاينة في إنشاء دولة اسرائيل وبقائها في خلق جيش قويّ وحديث، يفترض وجود بلد وشعب متقدّمين في الهيكل الاجتماعي والتّربية وطريقة الحياة بأكملها .

لقد كان أهمّ أركان الثّقافة اليهوديّة الّتي ركّز عليها زعماء الصّهاينة العمل اليدوي، لاعتقادهم بأنّ العودة إلى أرض الأجداد تعني تطهير النّفس اليهوديّة عن طريق العمل اليدوي والجسدي، لأنّهم كانوا مسجونين داخل أسوار المدينة، معزولين عن الطّبيعة، وقد اعتادوا كلّ أشكال الحياة عدا العمل، وسيحتاج هذا الشّعب إلى أضخم الجهود من أجل استعادة وضعه الطّبيعي مرّة أخرى، فأيّ عمل أو حرفة أونشاط منتج هوجزء من الثّقافة ويُشكّل أساسها أو مادّتها الّتي تتكوّن منها، فهناك طريق واحد يقودهم إلى الانبعاث، وهو طريق العمل اليدوي، طريق حشد كلّ الطّاقات، طريق التضحية المطلقة من أجل المثل العليا، لذلك صُدِم وحيد بما رآه وسمعه من تطوّر وتقدّم علمي عند اليهود خلال زيارته لزوج اسحق شالوم في الكيبوتس، حيث أخذه أحد رجال الكيبوتس وهو أستاذ في التّخنيون في رحلة تعارفيّة أوقفته على الفرق الشّاسع في التّطوّر العلمي والزّراعي والاجتماعي والفكري بين الشّعبيْن الفلسطيني واليهودي، فتساءل عن «سرّ حمل اللّيمون في عزّ الصّيف لأنّ الوقت ليس وقته؟ فأجاب المسنّ بأنّ الشّجر يحمل عندهم يحمل على طول، صيفًا شتاءً، وبكلّ الأوقات . تذكّر وحيد ما سمعه من النّاس أنّ اليهود يجعلون الشّجر يحمل على طول، بلا توقّف . البعض فسّره بأنّ اليهود جاؤوا بعلوم وفنون الغرب وسبقونا بالزّراعة والكهرباء والميكانيكا»[1]، وفي مقبوس آخر «قهقه المسنّ وقال بلهجته الأستاذيّة المتسامحة إنّ اللّيمون عنده أستاذ، وإنّ العنب عنده أستاذ والموز

1- سحر خليفة ، أصل وفصل ، بيروت ، دار الآداب ، 2009 ، ص 197 - 198 .

واللّوز وحتّى الفجل عنده أستاذ»[1]. لذلك كان تطبيق تلك الفلسفة في مناهج التّربية لدى اليهود، إقامة المدارس الزّراعية ومستوطنات الكيبوتس الّتي تعمل كلّها على مبدأ فلسفة دين العمل، والحثّ على التمسّك بالأرض الّتي يعتبرونها جزءًا من التّراث والثّقافة القوميّة لديهم .

يطرح هذا السّيناريو أسئلة على السّاحة الفلسطينيّة منها على سبيل المثال: هل يملك المجتمع الفلسطيني بقواه الذّاتيّة المتواضعة وظروفه الرّاهنة القدرة على مجاراة تفوّق المجتمع اليهودي ؟

تأتي الإجابة على لسان ليزا النّاشطة الانكليزيّة المتعاطفة مع العرب «الشّعب الفلسطيني شعب فلاّح 70% من القرية يعانون الفقر و70% أميّون . نحن نعمل لاختصار الفقر والأميّة، لكن الانتداب لا يتعاون . ضرائب وسجون ونقص مدارس ... لابقاء الوضع على حاله»[2]، وفي مقبوس آخر «اليهود جاؤوا من بيئة مختلفة وفكر مختلف، وحضارة أبعد ما تكون عن جوّ العرب وقدرتهم على الاستيعاب»[3]، حتّى زكية الّتي استنكرت علاقة أخيها رشيد مع اليهود «سألته بذعر: تشتغل مع اليهود»[4]، تؤكّد على تفوّق اليهود العلمي بقولها لابنها وحيد «اسمع منّي خذ رشا لليهود يمكن تحبل ... عندهم دكاترة زي الألمان ويمكن أشطر . فيه واحد اسمه ... نسيت اسمه، قالوا شاطر . اليهود شاطرين»[5] .

وتتابع سحر في بلورة الصّورة الحقيقيّة للوضع الاجتماعي الذي كان عليه الشّعب الفلسطيني في أخطر وأدقّ سنوات تاريخه الّتي كانت نهايتها تشريد الشّعب الفلسطيني وضياع الوطن .

ففي الوقت الّذي كان اليهود موحّدين على مختلف فئاتهم وقياداتهم السّياسية والاجتماعية والثّقافية ويعملون يدًا واحدة في الضّغط على المحتل الانكليزي، ويسعون لشراء الأراضي العربيّة، وتوسيع الاستيطان اليهودي في البلاد، والعمل الدّؤوب على تحقيق الغاية وإقامة الوطن القومي لليهود في فلسطين، كان القادة والزّعماء العرب منهمكين في تثبيت زعاماتهم وإشباع غرورهم وذلك على حساب مصلحة الوطن، وبتعاون قسم كبير منهم مع الحاكم المحتلّ ومع زعماء اليهود على توفير السّبل لهجرة اليهود للبلاد وتهريب الأسلحة، ولم يتورّع هؤلاء القادة

1- م. ن.، ص 200 .
2- م. ن.، ص 342 .
3- م. ن.، ص 366 .
4- م. ن.، ص 74 .
5- م. ن.، ص 288 .

والزّعماء عن إهمال حاجيّات ومشاكل ومطالب أبناء شعبهم أوعن الاختلاف فيما بينهم ومحاربة الواحد للآخر والاستعانة بالانكليز أواليهود لنيْل ما يُريدون .

وازداد الوضع سوءًا مع ازدياد تذمّر النّاس من الوضع المزري، والاذلال، ورؤية انتشار الاستيطان اليهودي في البلاد وتواطؤ الانكليز مع اليهود، وتسهيل دخول المهاجرين وتوطينهم وتهريب الأسلحة، حتّى حدث الانشطار الكبير ما بين النّاس والزّعماء والقادة، فابتعد النّاس عن الزّعماء، وأهل القرية عن أهل المدينة، وتعدّدت الولاءات والمصالح والانقسامات والصّدامات واستحالة توحيد الصّفّ . وانفجر الشّارع، وأعلن العصيان في أكثر من منطقة، وأعلنت الثّورة، وازدادت الصّدامات والمواجهات بين النّاس والجنود والمحتلّين، وزاد القمع والشّنق «ثوّار شنقوا، متظاهرين اعتقلوا، بيوت نُسفت، وعائلات شُرّدت ... وعدد اختفوا عن وجه الأرض، ولا أحد يعرف أين ذهبوا أوكيف اختفوا»[1]، لكنّ الزّعماء لم يتوقّفوا عن زيارة الحاكم والتّودّد إليه «كانوا يزورونه كلّ على حدة، ويفاوضونه، كلّ على حدة، ويساومونه ويحتفلون معه بعقد الصّفقات كلّ على حدة، ثمّ يُسرّبون الأخبار للصّحافة أنّ التّفاوض والاجتماعات من أجل السّلام وكسب مواقع لدى الانكليز لدحر اليهود»[2] .

ولم يكن العمل السّياسي بأفضل، فتصف لنا الكاتبة أحداث المظاهرة النّسائيّة، موثّقة بالصّورة، الّتي قامت بها نساء القدس وقابلْن الحاكم الانكليزي وطالبْنه بحقوق الشّعب، وكيف حاول بعض الزّعماء تخريب المظاهرة بتحويل النّقاش خلال مسيرتها إلى سفور النّساء ولباسهنّ غير المحتشم «غطّوا يا نسوان، غطّوا، غطّوا»[3]، وبعض الشّباب بدأوا بالتّحرّش والغناء المهين «أمّ البونيّة رقّاصة، بدها بُمبة ورصاصة»[4]، وتعدّي بعض رجال الدّين على بعض النّساء «وأخذ يحوقل ويترحّم على هذا الزّمن وعهر النّسوان، لأنّ المرأة في هذا الزّمن، زمن البونيّة، صارت وقحة وقليلة دين»[5] .

أرادت سحر خليفة من خلال عرضها لأوضاع الناس والقادة والزّعماء أن تُلقي الضّوء على الأسباب والمسبّبات الّتي أودت بضياع البلاد وتشتّت الشّعب،

1ـ سحر خليفة ، أصل وفصل ، بيروت ، دار الآداب ، 2009 ، ص 116 .

2ـ م. ن.، ص 431 ـ 432 .
3. م. ن.، ص 153 .
4ـ م. ن.، ص . ن .
5ـ سحر خليفة، أصل وفصل، بيروت، دار الآداب، بيروت، 2009، ص 155 .

ومع كلّ ذلك الإحباط، نجد سحر خليفة المقاومة ترفض الاستسلام له لأنّ هدفها هو صناعة الوعي الانساني، أي أنّ الهدف والغاية من أحداث التّاريخ، ومفاصله ومحطّاته هو الدّفع بصناعة وعي كامل، وجعْل الناس قادرين على التّمييز بين الوعي الصّحيح والوعي الفاسد والزّائف، هدفها من ذلك كسب المزيد من المنخرطين في دائرة الوعي المنشود لديها، وصناعة الوعي لا تتأتّى إلاّ بالاستفادة الكاملة من جميع الطّاقات والكفاءات والبحث عنها، واستثمارها في جذب النّاس إلى الفكر الأصيل، والثّقافة الواعية، كي يعود معها القارئ عامّة والفلسطيني خاصّةً إلى النّبع الصّافي، والمنهل الخالد للامداد بكلّ مقوّمات النّهوض، لذلك تورد على لسان الشّيخ الجليل «فهل نرضخ؟ أم نشحذ قوانا ونقاوم؟ وكيف نقاوم؟ بالمظاهرات؟ بالمؤتمرات؟ بالعرائض؟ أنا لا أرى إلاّ السّلاح طريقًا ينفعنا... كذبوا علينا وخدعونا وأهانونا، وقسّموا بلادنا كذبيحة، فعدنا قبائل .. فماذا نفعل الآن وقد ضِعْنا؟ نركع، ننخُ؟ نسكت على الظّلم؟ نخرس وننشلّ ولا نقول كلمة الحقّ في وجه الضّلال والمستعمر»[1] .

عبّر هذا المقبوس المُدجّج بالاستفهام عمّا تحمله سحر من تفاؤل كبير بأنّ الطّريق إلى التّحرير يجب أن يبدأ ويستمرّ لدحر العدوّ، والسّؤال الناجح في البناء الثّقافي بداية الإجابة النّاجحة، وبالتّالي فإنّ هذه الاستفهاميّة ليست سوى نسغ متحدّر من ثقافة سحر تدفعها في نفوس شخصيّاتها، والملاحظ أنّ التّشكيل الثّقافي الّذي تسعى إليه الرّواية لا يقوم بتأثير آنيّ فحسب، فهوبقدر ما يحمل من الآنيّ يحمل من الاستراتيجي، خصوصًا في معركة قائمة مع عدوّ مُتغطرس ولأمدٍ غير معروف .

الخاتمة

قاوم الشّعب الفلسطيني الاحتلال الاسرائيليّ على مدار ما يقارب الخمسين عامًا إيمانًا منه بحقّه المطلق في الدّفاع عن أرضه ومقدّساته وكلّ ما يمسّ وجوده.

ولقد رأينا أنّ سلوى البنا تؤكّد في روايتها «عشّاق نجمة»، أنّ الأسرى الفلسطينيين يتعرّضون لحرب إبادة سياسيّة ومعنويّة على يد السّجّان الصّهيونيّ لذلك كان من الطّبيعي أن تحوّل سيرتهم في معتقلات الاحتلال إلى سيرة مُدجّجة بحكايات الدّم والألم والمعاناة والبطولة، وعنوانًا للصّمود والتّحدّي وانتصار ارادتهم على سجّانيهم.

1- م. ن.، ص 227 .

انطلاقًا ممّا سبق، يُمكنني القول: إنّ فلسطين تدق على جدران الصّمت والعار العربيّ، وتُعلن حاجتها الملحّة والعاجلة جدًا إلى أزمة ضمير وأخلاق عربيّة وعالميّة، وإلى مواقف وطنيّة وقوميّة عربيّة حقيقيّة وجادّة، وليس إلى استعراضات وبيانات، كما وتُعلن حاجتها إلى من يتطلّع إلى الحقول الخضراء في إنسان يحصد قمح حرّيته منذ أن حلّ الاحتلال ولم يتعب .

إنّ ثقافة سلوى البنا الّتي تتفيّأ تحت ظلالها دفعتها إلى إبداع أشكال المواجهة مع الصّهاينة، وفضح مشاريعهم الهادفة إلى تذويب الشّخصيّة الفلسطينيّة وطيّ رغائبها، وشلّ مفاعيل قوّتها، كما أنّها أرادت لقرّائها أن يروا صورة الأحداث الجارية أمامهم، وكيفيّة رسمها، واستعادة مشهديّات الصّلف الصّهيوني من جهة، ومقاومة الأسرى الفلسطينيين له من جهة ثانية .

ولهذا السّبب نفسه تحدّثت عن أحداث الانتفاضة الفلسطينيّة والنّشور الوطني لفتيان فلسطين وأطفالها الّذين شكّلوا مرآة جديدة للنضال الفلسطيني، لأنّ هذه الانتفاضة مثّلت دكًّا لكلّ مقولات الصّهاينة الّتي أرادت إماتة النّضال الفلسطيني، والّتي روّجت إلى أنّ الأجيال الطّالعة نسيت فلسطين .

وممّا يجدر ذكره في هذا المقام أنّ روايتها وجه مشرق للنّضال الفلسطينيّ، واندفاعة قويّة لثقافة المقاومة، ومواجهة باسلة لثقافة المحور وتفتيت الذّاكرة الفلسطينيّة، على الرّغم من كلّ الأساليب التّرهيبيّة الّتي يتّبعها الصّهاينة من أجل أسرلة الجميع، والأمكنة، ولكنّ الاخفاق كان مآل هذه الأساليب برمّتها، لأنّ الشّعب الفلسطيني محصّن بهويّته، ولغته، وتاريخه، وأحلام أهله، وعصيّ على الانحناء .

المصادر

ـ سلوى البنّا ، امرأة خارج الزّمن ، بيروت ، الدار العربية للعلوم ، ناشرون ، 2012.

المراجع

1–علي مهدي زيتون ، أدبيّة الرّواية ، بيروت، دار المواسم ، 2016.

2–قدور عبدالله تاني ، سيمائية الصّورة ، تقديم طاهر عبد السلام وتيري لونسيان، دار الغرب للنشر والتوزيع ، وهران ، 2005.

3–إبرهيم اسطمبولي من روّاد المقاومة الفلسطينية. إستشهد في أغوار الأردن جنوب مأربا، سنة 1969 ، قبيل زفافه بأيّام .

4–محمد عبد المطلب، بلاغة السّرد، الهيئة العامّة لقصور الثقافة ، ط1.

5–جميل حمداوي ، السيميوطيقا والعنونة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مجلة الفكر، مج 25 ، العدد3.